موت الياسمين

سماح سلايمة اغباريّة*

نيسان 2011 ، "ماما، ماما"... نادت هند أمّها ياسمين بصوت خافت. نظرت أمّها إلى الخلف خائفة وحزينة وهي تضع غطاء رأسها وتنتعل حذاءها مسرعة تعرّج نحو الباب الخلفيّ: "فوتي حبيبتي وسكّري الباب بسرعة، وديري بالك على أختك الصغيرة". ركضت ياسمين إلى الخارج بخطى راجفة ولم تغلق الباب تمامًا خلفها، وبعد لحظات فَضّ صوت سيارة مسرعة هدوءَ المكان. تبعت أذنا هند الصغيرتان صوت السيارة التي ابتعدت في سواد الليل. عاد السكون المريب إلى البيت. أخلدت هند للنوم في سرير أمّها، واحتضنت أختها الرضيعة غالية، وغلبها نعاس ممزوج بالرعب ونامت...

في الخامسة صباحًا، صَحَت الرضيعة غالية تبكي جوعًا وتبحث عن ثدي أمّها الدافئ، فهمّت هند تحتضنها وتحاول تهدئتها كما كانت أمّها تفعل. ولكن هند -وعمرها ثماني سنوات- أدركت سريعًا أنّها لن تستطيع إرضاع أختها. حامت ء يناها في أنحاء الغرفة باحثة عن ريح أمّها أو أيّ أثر يدلّها على مكانها، ولم تجدها، فحملت غالية وضمّتها إلى صدرها ومشت بخطاها الصغيرة المثقلة بالخوف والقلق والبكاء في أنحاء المنزل، ولم تجد أحدًا غير إخوتها الأربعة النيام في غرفتهم. وما هي إلاّ لحظات حتّى وجدت هند نفسها تقف باكية أمام جدّتها في بيتها المجاور، تروي لها ما حدث وأنّ أمّها لم تَعُدْ إلى البيت حتّى الآن. لم تستطع هند أن تلتقط أنفاسها وهي تطلق كلماتها

الراجفة من بين شفتيها الجافّتين كلمة تلو الأخرى وتمدّ يديها مُسلِّمةً أختها الرضيعة لصدر جدّتها، وإذا بالجدّة تطلق صرخة رعد مدوٍ في فضاء ساكن، "آاااه يا ياسمين، يا بنيّتي شو عمل بيكي هذا الكلب هاي المرّه. يا رب ارحم أولادها الستّة ورجّعلي ايّاها يا ربّ". وقفت هند تنظر إلى الجدّة المنتحبة وشعرت بندم لأنّها سلّمت أختها لعويل جدّتها المؤلم. لم تفهم سبب كلّ هذا النحيب.

مضت ثلاث ساعات حتّى سمعت صوت إطارات سيّارة الشرطة. تَرجّل منها شرطيّان. تمتم أحدهما بعض الكلمات العبريّة مع خال هند، محمود، وكان آخرها الكلمتان "ياسمين هامسكيناه" (ياسمين المسكينة). خلال ثوانٍ عمّت الفوضى المكان وعلت صرخات النساء، وتجمّع رجال ونساء. صرخت إحدى النسوة وهي تحمل غالية: "قتلوا أمّك يا حبيبتي! شو عملتي إنتي بهاي الدنيا تتشوفي الويل هاذ"؟! ضاعت هند بين النساء، ولم تدرك حقيقة ما حدث لأمّها.

وُجدت ياسمين مقتولة باثنتي عشرة طلقة رصاص في مقبرة مهجورة خارج المدينة.

سمعت سناء، عمّة هند و صديقة ياسمين الوحيدة، صوت الصراخ في بيت عمّها (أهل ياسمين)، ولكنّها لم تستطع أن تتحرّك؛ فهي مُقْعدة منذ الصيف الماضي بعد إصابتها بطلقات ناريّة أطلقها عليها أخوها خالد، زوج ياسمين. ذُعرت سناء وانهمرت دموعها وعادت بها ذاكرتها إلى ذاك اليوم في آب الماضي. حينذاك، انقضّ خالد عليها وعلى ياسمين، وأطلق عدّة رصاصات عليهما معلنًا: "انتو التنتين اغلطتو كتير، ولازم أربّيكم. اللي تتجرّأ وتغلط بخالد وكرامته لازم تموت". أصيبت ياسمين في ساقيها بطلقات عديدة لأنّ سناء، ابنة التاسعة عشرة ، حمتها وحمت جنينها بجسدها. وتلقّت الر صاصات من سلاح أخيها. اليوم، تعيش سناء بجسد معاق تمامًا وتربطها بالحياة روحٌ تأبى الموت. منذ ذاك اليوم الأسود، لم تر سناء وجه صديقتها ياسمين ولم تسمع صوتها الذي

واساها واحتضن ألمها كلّما تعرّضت لاعتداء وجَوْر في هذا المنزل. وها هي اليوم تعرف بكلّ ما تبقى لها من حواسّ أنّ ياسمين قُتلت وهي تعرف من قتلها. كلّ من عرف خالد وقصّة ياسمين معه شمّ رائحة الموت والدم في بيتهما ولم يفعل شيئًا. حضرت الشرطة وأخْلت المكان بعد جمع الأدلّة. حقّقت الشرطة مع الرجال فقط ولم تسأل النساء ولم تُعِرْ وجودَهنّ أيَّ اهتمام. لم تسأل ا لجدة ولم تسأل هند ولم تسأل سناء، كل هذا بحجّة "احترام" عادات البدو التي تمنع تحدَّث الرجال الغرباء إلى النساء. في هذه الدولة، تُزهق أرواح النساء باسم الاحترام. يُختزل التحقيق بحجّة الحسّاسيّة الثقافيّة. يقتل الرجل المرأة، يسكت مجتمع، وتُعلن الشرطة عجزها!!!.

قامت جمعيّات نسويّة بإعلان الحداد وإصدار البيانات ونصب خيمة عزاء أمام مقرّ الشرطة احتجاجًا وغضبًا؛ , فكلّما قُتلت امرأة لا يُعتقل أحد ولا يعاقَب أحد بحجة "عدم توفّر الأدلّة". مقتل ياسمين كان في الإمكان منعه لو حُكم على خالد بالسجن لمحاولته قتل أخته وزوجته، ولحيازته سلاحًا غير مرخّص ولجرائم عنف ومخدّرات. ولكن أُطلق سراحه وأعيدت ياسمين إلى بيتها بعد خروجها من المشفى، وادّعت الشرطة أنّها أبلغت جهاز الرفاه الاجتماعيّ بقضيّتها بواسطة الفاكس. تقرير لم يصل قَطّ طبعًا!

لقد سمحت الشرطة للناشطات النسويّات بنصب الخيمة دون وضع أوتاد في الأرض، لأنّ أوتادًا في الأرض تُعتبر تهديدًا لكيانهم! وتعني بيتًا وسقفًا "غير قانونيّ"، فنُصِبت الخيمة بحبال طويلة كأنّها شبكة. تظاهرت النساء ضدّ شرطة التقاعس في حماية النساء، ورُفعت الشعارات المُندِّدة بقتل النساء وطالبت بالقبض على القتَلة وحذّرت من الجريمة القادمة. لم تكن هذه أوّل مظاهرة، ولم تكن ياسمين أوّل امرأة تُقتل. حسب معطيات جمعيّة "نعم- نساء عربيات في المركز"، قُتلت ٣٥ امرأة على أرض اللدّ والرملة خلال السنوات العشر الأولى من هذا القرن. توجّهنا إلى بيت

ياسمين للتضامن وتقديم ا لعزاء لأهلها. تبقّى منّا أربعة أشخاص وصحافيّ، وذهب الباقون كلٌّ إلى حياته.

كانت الجدّة تحمل غالية بيد ومفتاحًا صغيرًا بيدها الأخرى، ودموعها تنهمر على خدّيها الذابلَيْن المشقّقَيْن بتجاعيد الزمن والهمّ. أخذتُ غالية من حضن الجدّة وأجهشت بالبكاء. تحدّثتُ مع الجدّة ووجدت نفسي وحيدة في الغرفة معها محتضنةً الطفلة الضاحكة. سألتها : "شو هادا المفتاح اللي معك أمّ محمود"؟ ردّت من صدر مثقل ومتنهد: "هذا يا بنيّتي مفتاح باب بيتها الورّاني، الباب الجديد اللي فتحوه عشان أقبل أرَجّع ياسمين لبيتها بعد ما طلعت من المستشفى، ويا ريتني متت قبل ما أقبل! ما شافت يوم واحد مسعد معه. شافت الذلّ والعذاب ألوان. وبعد كلّ العمر والصبر صار بدّه يتجوّز وحدة ثانية وبدّه تِقْبل وتسكت تخدمه وتخدم اولاده، تنضرب وتسكت. وما قبلت تسكت. ليش تسكت"؟!

في آب الماضي، أرادت ياسمين أن تنهي زواجها والهروب من خالد الذي خلّد الجروح في جسدها وروحها. هذا كلّ ما طلبته؛ ترميم ما تبقّى من كرامتها، فتركت المنزل. ولئلاّ يعتقد أحد أنّها زوجة "غير صالحة"، اتّفقت هي وأخته سناء لترافقها في الهروب من الدار. حينذاك حاول خالد قتلهما. بعد أن اكتشفت أنّها حامل، قرّرت العودة إلى البيت حتّى بعد إصابتها برصاصه، لتضع "غالية" قبل ثلاثة أشهر. لم توافق أمّ محمود ابنتَها على قرارها بالرجوع، وخافت أن يعاود محاولة قتلها. وبعد ضغط العائله ورجال الصلح، رضخت أمّ محمود ووافقت على مضض. كانت الاتّفاقيّة أن يُفتح من بيت ياسمين بابٌ جديد يقابل بابَ أمّها، ولا يملك أحد مفتاحه غير ياسمين وأمّها، حتّى تستطيع اللجوء إليها متى شعرت بالخطر. رفعت أمّ محمود المفتاح وانهمرت دموعها مجدَّدًا: "وهيّاني قاعدة مع هالمفتاح. فكّرت بقدر أعمل لها إشي بيه، وهي طلعت من هذاك الباب وما رجعت، ومش رح ترجع يا ويلي عليها".

بكيتُ وعجزتُ عن النطق أو الحراك. وقعت كلمات أمّ ياسمين عليّ كطلقات رصاص متتالية... بعد انتهاء الجدّة من سرد القصّة، تعهّدتُ بأن أتابع بكلّ قواي وقدراتي ما تقوم به الشرطة في شأن هذا الملفّ، لأتأكّد من أنّه سيَزَجّ بخالد في السجن وسيَحاكَم على جرائمه كلّها. لم أَعِ مدى صعوبة بل استحالة ذلك في مدينة تسودها لغة العنف والرصاص؛ يخاف الإنسان فيها أن ينطق بشهادة حقّ خوفًا من أن يُقتل؛[1] مدينة يُقتل فيها شباب بعمر الورد لمجرّد الوقوف في مكان خطأ وزمان خطأ؛ مدينة تُهدم فيها البيوت فوق رؤوس أصحابها دون حساب؛ مدينة تعجّ بالناس من كلّ القرى الفلسطينيّة المهجّرة القريبة. عائلات بدويّة كاملة نزحت إليها من النقب الحارّ، باحثة عن لقمة العيش في مركز البلاد، ثمّ يختلط هؤلاء مع يهود تجمّعوا من روسيا وأثيوبيا والبلاد العربيّة، كلّهم هنا يعيشون، يتذمّرون، يعانون الفقر والجريمة، ويتمتّعون بلحظات مجد خاطفة مع زيارة وزير تارة أو متبرّع من أصول أمريكيّة يقوم بدور المسيح المنقذ، أو يشتركون في فيلم وثائقيّ لمخرج حالِمٍ بالشهرة يتركهم فورًا بعد الحصول على دموعهم البائسة لفيلمه. فكّرتُ في طريق عودتي أنّ ياسمين لن تحظى بأيّة لحظة مَجْدٍ حتّى لو مُزيّفة، وأنّ ذكراها ستتلاشى مع مرور الأيّام، وتساءلتُ عن نوع الحياة التي تنتظر أطفالها الستّة، وهل ستعرف غالية حقيقة موت أمّها يومًا؟ وهل سينمو الياسمين في قلب هند بعد كلّ ما شهدت؟...

*سماح سلايمة اغباريّة هي عاملة اجتماعية، وناشطة نسويّة، ومؤسّسة ومديرة جمعيّة "نعم- نساء عربيّات في المركز" التي تهدف إلى رفع مكانة المرأة في مدن المركز والرملة واللدّ ويافا، وإلى مكافحة الجرائم ضدّ النساء وتدعيم أُسَر الضحايا.

[1] يُذكر أنّه، نتيجة الضغط الاعلاميّ والجماهيريّ الذي مارسناه بالتعاون مع العائلة، وصل خالد للمحاكمة وحُكم عليه بتاريخ 18.11.2013 بالسّجن المؤبّد لقتله ياسمين. بالإضافة بتاريخ 16.1.2014 حُكم عليه بالسجن 12 عاما على محاولته لقتل ياسمين وأخته.